

الدرس الأخير: من طفلي أتعلم

ربما كان أعظم درس تعلمنا إياه الأطفال هو الحب غير المشروط، إذ أننا أحياناً كثيرة ما نبالغ في توجيه اللوم لهم، إلا أنهم يعودون ليطوقونا بأذرعهم، ويبيثون فينا دفئهم ولسان حالهم يقول "لا بأس يا أمي ... لا بأس يا أبي ... أننا نحبكما عندما تكونان لطيفان معنا ... وحتى عندما تكونا غاضبين منا، فأنا دوماً في حاجة إلى تواصلكم معنا ... بالحب والحنان ... أو حتى باللوم" ... فأن الأطفال مميزون في البصيرة القلبية. ونحن البالغين نحتاج إلى الأطفال أحياناً لكي يكشفوا لنا أموراً تحول عنا صرامتنا دون رؤيتها؛ ففي انفتاحهم على الحياة يذكروننا أحياناً بالأمور الجوهرية ... فحدث أن اقتنت طفلة في السابعة من عمرها سمكاً ذهبية، لم تعب من مراقبتها وهي تسبح وكانت تتنادي أمها لتري كيف ترسل إليها السمكة قبلات بفمها المتغضن، وكانت هذه السمكة هي أول من يلقي تحية من الطفلة عند عودتها من المدرسة، ولطالما سمعها والدها تخبر السمكة بأسرارها وإحداث يومها وحكايات زميلاتها وذات يوم سألت هذه الطفلة أمها: "هل تنام الأسماك؟". وكانت سمكتها ممددة على جانبها في قعر حوض السمك الصغير. فبكت الابنة بمرارة وحرقة بين ذراعي أمها حتى لتتمنت الأم لو لم تتعلق الطفلة بها كثيراً. ولكنها سرعان ما مسحتي الطفلة عينيها بكمها وقالت: "على الأقل كانت معي بعض الوقت". ورأت الأم عندئذ في عيني أبنيتها الجمال والنمو اللذين يأتيان من الحب النابع من الصميم، وكانت الأم قد تعلمت أن تحاذر الحب خوفاً من الجرح العاطفي، لكن ما قاله لها قلب طفلتها "أن الحب يفرح بقدر أكبر مما يؤلم الجرح" فتعلمت الأم من ذلك اليوم أن تفتح قلبها على الدنيا والناس وتعلمت أكثر أن تحب ولازالت تذكر أن جرأة ابنتها الطفولية هي دافعها الأساسي. الكثير من صفاتنا الحسنة تندثر وتموت بداخلنا عندما يتقدم بنا العمر، ولكن ليس من المحتم أن تموت هذه الخصال الطيبة عندما نكبر؛ فيمكننا إن نحافظ على روح الطفولة فينا بأن نركز على الدروس التي تعلمنا إياها الأطفال كل يوم.

وتأتي غرائز أبنائنا عفوية وبسهولة ويسر، فهي إذن بحاجة إلى رعايتنا والاهتمام بها وصقلها حتى تكون نتائجها إيجابية ذات تأثير فعال وبناء على أطفالنا الناشئين، وألا نحاول أن نخدش هذه البذور الصغيرة التي ستصير أشجار المستقبل، فالطفل بعكس الشخص البالغ؛ إذا ما وجهت له إهانة أو لوماً في غير محلة، فإنه لا يتبين خلفيات هذه الإهانة ولا يحل انتقادك له تحليلاً واعياً، كما أنه لا يستطيع أن يتحدى منتقديه، لكنه يحتفظ بالجرح داخله ويصبح عائقاً أمام نموه السليم سواء من الناحية النفسية أو الأخلاقية.

ثانياً: إن الساعات الطويلة الروتينية في المكتب قد تفقدنا بهجة الحياة. ولا يسعنا أن نتجاهل متطلبات العمل، لكننا نستطيع تلوين يوم عملنا بقليل من المرح مع أطفالنا، وبعض لا يستطيع التخلي عن الجدية إلا في رفقة الأطفال. تقول الطيبة النفسانية "جوي ميللر": "إن الأطفال يأذنون لنا بإعتاق الطفل الذي بداخلنا".

حانت عطلة نهاية الأسبوع وبقيت لدي رئيس تحري احدي المجلات أعمالاً كثيرة غير منجزة، وكان مسئولاً عن رعاية أبنه ذي السنوات الأربع. صباح يوم العطلة ألتفت الصبر إلى أبيه وقال: "هيا بنا نلعب يا أبي" ... ولكن الأب كان غير مهين نفسياً للعب إذ كان قراره نفسه يدي أن الأمر سيكون عبئاً عليه وسيحاول التظاهر بالمرح مع طفله ... إلا أنه قال في بساطة ولم يرد إغضاب الصغير: "هيا بنا!" ... وبدأ الطفل يعرض العابة على والده وتضمنت عطلة نهاية الأسبوع عراكاً مائياً بخراطيم الحديقة وغذاء شهياً وصماماً بهيجاً أبحر خلاله أسطولاً من المراكب البلاستيكية الصغيرة ... وبفعل الحيوية التي أضفاها اللعب أنجز رئيس التحرير عمله في نصف الوقت المتوقع ما وصار بعدها في غاية الدهشة، إذ تأمل ما حدث في الأسبوع السابق، ليجد أن يوم اللهو والمرح مع طفله الصغير قد أمدّه بالطاقة اللازمة لإتمام ما يجب إتمامه من عمل مؤجل.

اللعب الطفولي وفقاً من الطاقة في من أضناهم الإفراط في العمل؛ فإدخال البهجة قلوبنا يسمح لنا بالاسترخاء والتمتع بأيامنا بدلاً من تحملها كعب، لا يطاق احتماله.

ثالثاً: تعلم منهم التأمل في الدقائق العظيمة وإبداع الخالق في كونه ... إذ يري الأطفال أموراً لا يراها معظم البالغين، وغالباً ما تقود ملاحظاتهم إلى أسئلة توسع مدارك العقل وتشحن الروح، وهم يسألون أسئلة من نوع السهل الممتنع ... أسئلة بسيطة للغاية لكننا لا نجد لها إجابة حاضرة في أذهاننا ... "لماذا السماء زرقاء؟" "كيف تعرف أوراق الشجر الوقت المحدد لتغيير ألوانها؟" "لما تهز الكلاب أذناها؟" ... تقول مربية سويدية "كنت أشرف على بضعة أطفال تركوا في رعايتي ... فجأة صاح احدهم يناديها وآخر جاء يشدها من زراعها إلى النافذة لتتأمل بطن ذبابة زرقاء اللون تقف خارج الزجاج وهم يتأملون حركاتها الدقيقة الخاطفة في عجب هادئ، مطلقين بين الحين والآخر صغير دهشة، وإذا راقبتهم وراقبت ما كانوا يتأملون تملكنتي مثلهم الرهبة والخشوع لعظمة الخالق في مخلوقاته" ... أليس منتهي الكبر والتجديف أن نتجاهل صوراً بسيطة هي آيات لعظمة الله أو نراها ونقول "هذا أمر عادي ... ماذا به؟" ... ولكن مشاغلنا المتكدسة تعطل قدرتنا على التأمل وتقف حائلاً بيننا وبين ما يجب أن نتعلمه من الطبيعة. وكان الفيلسوف الإغريقي (ارسطاطاليس) يقول أن الفلسفة تبدأ بالدهشة ... إذًا، فالأطفال هم الفلاسفة بيننا ... فهم لا يكفون عن التأمل فالآن هاش فالتساؤل طوال الوقت ... وهذه الأسئلة المخرجة تواجهنا منهم في كل وقت من الأوقات ... لكنها تشحن بدورها تأملاتنا، وتجعلنا - مثلهم - نفكر في أسئلة أكبر منا.

رابعاً: لدي الأطفال ميلاً واضحاً للتعاون ومشاركة أترابهم في ألعابهم وأمورهم الصغيرة، وعندما يبلغ الطفل الثانية من العمر تكون قد توفرت لديه نظرة أكثر نظاماً للعب، وعلى الرغم من أنه لم يصل بعد إلى السن التي تجعله يقدر أهمية المشاركة مع الآخرين، إلا أنه يصبح شديد السعي ليوثر لنفسه أطفالاً في مثل سنة ليلعب معهم، وبينما يزداد تعرفاً على نفسه مع هؤلاء الرفاق عن طريق محاولة تقليد هم منافستهم، يبقى

بحاجة إلى الكثير حتى يتعلم كيف يتكيف مع آخرين في مثل سنة، ويدرك أن الآخرين لهم حقوقهم التي ينبغي عليه أن يأخذها بعين الاعتبار.

على أن الطفل وهو في سنته الأولى لا يكون قادراً بعد على التعبير عن هذا المدى الكبير من ردود الأفعال التي تحتشد داخله تجاه من يقابلهم بالطبع، غير أنه - وبطريقة تثير الدهشة حقاً - تجده عندما يلتقي بآخر غريب في مثل سنه؛ يقابله على أنه إنسان أكثر شبهاً به من أي شخص آخر سبق وتعرف عليه ... ويمكننا - بالطبع - أن ندرك أن هذا اللقاء لن يترك في الطفل أكثر من بريق سعادة يتبعها اهتمام حذر في هذا السن (مهما كانت درجة ذكاء الطفل)، ويأخذ اهتمام الطفل يتزايد تدريجياً بالأطفال الذين هم من نفس سنه. وهنا يكون على الوالدين توفير وجود هؤلاء الأطفال في مجال الطفل، أو توفير المكان الزمان المناسبين ليلتقي هذا الطفل بأترابه. ومن المفضل في هذه الفترة من عمر الطفل (عمر الثانية) أن نراقبه بعناية، إذا تواجد مع الأطفال من مثل عمره، إذا أن هذا الطفل أيضاً هو في بداية الحاجة إلى ذلك النوع من ومضة السرور والإثارة الذي لا يمكن أن يؤمنه له إلا طفل يماثله تقريباً في السن ... وعليه فأن الأطفال سوف يبدأون على أدراك معني الأخذ والعطاء الذي يكون مغروساً بداخلهم لكنه بحاجة إلى بيئة صحية لينمو ويظهر عليهم.

خامساً: أننا بحاجة إلى أن نتعلم أن نحسم أمورنا ونثق بأنفسنا أكثر ويمكننا أن نأخذ من جراه الأطفال دارساً مفيداً .. يحكي أحد الآباء قائلاً "عندما كان بني في مرحلته الدراسية الأولى احضر إلى البيت يوماً صورة مرسومة لقطة بنفسجية اللون، رسمها ولونها بنفسه، وقد كتبت المعلمة في أعلى الورقة: "أعد تلوينها مرة أخرى ... القطط لا تكون بنفسجية اللون" فقال لي أبني بإصرار: "ولكن قطتي بنفسجية يا أبي ... لقد تخيلتها هكذا". وقد علقنا الصورة فوق رف المستودع ميثاقاً لجرأة طفل غامر بروياه للحقيقة وخاطر بالتمسك بخياله الواسع ... وأحياناً عندما أرتدد بين المخاطرة بفرديتي والطاعة ... أنظر إلى صورة أبني علي الحائط أو أتذكر هذا الموقف السابق منه، تمدني الصورة بالشجاعة فأحسم أخرى فوراً. وعندما يسأل أحد أفراد العائلة أبني عن

القطة البنفسجية يقول: "أعرف أن هذه القطة بنفسجية، ولكنها قطتي أنا رغم كل شيء".
أن العديد من الابتكارات الفنية والاكتشافات العلمية ينبع من مثل هذه الجرأة الطفولية.
وفي الواقع فإنه من المفيد أن نشجع أطفالنا على التحلي بصفة الشجاعة والجرأة
(في حدود بالطبع). صحيح أنهم عندما ينطلقون في الحديث يسببون القلق بسببه كثرة
مطالبهم وإحاحهم المستمر ولكن تذكر أننا نقلق أشد القلق عندما يتأخر الطفل في
الكلام عن أقرانه، والطفل الذي يتأخر في الكلام يبدأ في إظهار إحباطه بهمهمات أو
تعابير لغوية غير مفهومة أو بعض الأفعال الغير مقبولة كالعصبية يحبط الأشياء
والقاء نفسه على الأرض وغير ذلك.

وأخيراً: تحكي سيدة أن زوجها قد أدخل المستشفى ذات مرة واضطرت إلى إعداد
أغراضها لتمضي عطلة المرض معه هناك ... لقد تملكها الشك والخوف، وكانت أبنيتها
ذات السنوات الأربع تلهو بدراجتها في الحديقة فاصطدمت بجذع شجرة هنا، وراحت
تصرخ منادية أمها، ثم جادلتها رافعة ركبته الممشورة الجلدي تريها لأمها، وسألتها:
"ولكن يا أماه ... من سيعتني بجروحي في غيابك". وبعد لحظة صمت غمغت الأم:
"لعل المربية سوف ... ولكن الطفلة قاطعت أمها وقالت: "كلا ... أنني أعرف
الإجابة ... أن الله سوف يرعاني" ... ثم ابتسمت الطفلة وعادت إلى دراجتها وعادت
إلى اللعب في الحديقة. وبعبارة الطفلة الصغيرة الأخيرة أحييت إيمان والدتها البسيط
الثابت ليزداد فجأة ويقوم اهتزازة.. وزال كل قلقها وخوفها على زوجها، وذهبت إلى
المستشفى بقلب أكثر شجاعة نعم، أن فطرة الأطفال النقية تعرف الله وتؤمن بوجوده
وقدراته، كما أن ذرات الشك لا تلوث هذه الفطرة أبداً، إذ لازال العقل سليماً، ولازالت
الروح بكرةً.

ونحن بحاجة بالفعل إلى أن نجعل إيماننا ثبات كما هو لدي أطفالنا، ونزيل عن
روحنا القلق وذرات الخوف والتوجس التي ترسبت من تجاربنا السابقة، وننقي سريرتنا من
غياب أعباء الحياة اليومية.

وأن أعظم حكمة نتعلمها من عقل وقلب الطفل هي أن "أطلقوا عنان أنفسكم وأحبوا!" ... ذلك أن المرء لا يري الحق إلا بقلب ... وليس كالأطفال مميزون في البصيرة القلبية.

"الختام"

كما نقول دائما، فائدة الكتب الطبية هي توجيه النصح والإرشاد لسد
النقص الفادح في ثقافتنا الطبية وتحسين أسلوب حياتنا الذي يواجه
صعوبات عديدة كل يوم، وكذلك تزويد الطبيب والمتخصص بمادة مناسبة
يقابل بها مرضاه ليخاطبهم بلغة أسهل من لغته العلمية العسيرة تناسبهم
فيسهل معها إتباع تعليماته الضرورية، ولا ينبغي الاعتماد عليها بالكامل
بل يجب التوجّه للطبيب المختص في الحالات اللازمة.

الكاتب يرحب بأي استفسار أو سؤال على البريد الإلكتروني:

د. هاني حجاج

Hany_haggag@hotmail.com

"المؤلف"

دكتور "هاني حجاج عبد المبدىء"

بكالوريوس الطب والجراحة - قصر العيني - جامعة القاهرة.

البريد الإلكتروني:

hany_haggag@hotmail.com

من الكتب التي صدرت للمؤلف:

- *أسطورة الوادي الناعس - دار ليلي - القاهرة.
- *سلسلة تعليم اللغات - دار الراتب - بيروت.
- *معا نتعلم الإنجليزية - معا نتعلم الفرنسية - معا نتعلم الألمانية - معا نتعلم الهولندية - معا نتعلم الإيطالية - معا نتعلم الأسبانية - دار الراتب - بيروت.
- *دليل السعداء - دار الراتب - بيروت.
- *أمراض منتصف العمر - سلسلة كتاب اليوم الطبي - دار أخبار اليوم - القاهرة.
- *أسئلة حائرة على ألسنة البنات - دار الراتب - بيروت.
- *القاموس الطبي الشامل - دار الكنانة - المملكة العربية السعودية.
- *معجم مصطلحات الطب النفسي - دار الكنانة - المملكة العربية السعودية.
- *معجم مصطلحات الطب الشرعي - دار الكنانة - المملكة العربية السعودية.
- *الدليل الشامل في أمراض الأطفال - دار الكنانة - المملكة العربية السعودية.

- *أمراض الصدر – دار الكنانة – المملكة العربية السعودية.
- *فن الخطبة والتكثيف في الشطرنج – دار العلم – بيروت.
- *فن الموتاج – دار العلم – بيروت.
- *النظرية الأدبية المعاصرة – دار الكنانة – المملكة العربية السعودية.
- *تبسيط مبادئ الفلسفة – دار الكنانة – المملكة العربية السعودية.
- *طرق (ديوان شعر) – دار الفكر العربي – المملكة العربية السعودية.
- *الغامض (رواية) – دار الفكر العربي – المملكة العربية السعودية.
- *ليلة مطر (رواية) – دار الفكر العربي – المملكة العربية السعودية.
- *سلسلة روايات الرعب – دار الحلم لروايات الجيب.
- *موسوعة الشطرنج – دار اليازوري – الأردن.
- *تاريخ الشطرنج – دار اليازوري – الأردن.
- *دراسة وتحليل أدوار الشطرنج – دار اليازوري – الأردن.
- *فن الخطبة في الشطرنج – دار اليازوري – الأردن.
- *الشطرنج: الدفاع الفرنسي – دار اليازوري – الأردن.
- *الشطرنج: الطابق الأسباني – دار اليازوري – الأردن.
- *ثلاثية البرهان والخيال والميزان- دائرة الثقافة والإعلام – قسم الدراسات والنشر – الشارقة- الإمارات.
- *موعدنا غدا وقصص أخرى – ترجمة- دائرة الثقافة والإعلام – قسم الدراسات والنشر- الشارقة- الإمارات.
- *فازت رواية (مسكون) بالجائزة الأولى في الرواية – الدار المصرية المعاصرة للتنمية والثقافة.